الفصل الثانى

شعر حافظ إبراهيم السياسى

شهد عصر حافظ ابراهيم العديد من كبار الشعراء أمثال البارودى وشوقى واسماعيل صبرى وغيرهم ومع ذلك فان ميزة حافظ الكبرى أن شعره تبلورت فيه آمال أمته، وتألقت الروح الوطنية فى كلماته فكانت الأمة تشكو من الاحتلال ومن فوضى الأخلاق وكان زعماء الوطنية والإصلاح الاجتماعى يلهبون حماسته، وكان حافظ يجمع كل ذلك فى نفسه وكان فى شعره يقف مساندا للصحافة الوطنية وقادة الرأى السياسيين والاجتماعيين يجلس فى مجالسهم ويغذى عواطفه من عواطفهم ثم يخرج ذلك كله شعرا قويا ملتهبا يفعل فى النفوس ما لا تفعله الخطب والمقالات، فكان حافظ شاعر الوطنية وشاعر الشعب وشاعر السياسة والاجتماع ولم يجاريه أحد فى ذلك من شعراء عصره خاصة وأن حبه للوطن ملك عليه شغاف قلبه وقد عبر عن ذلك بقوله:

متى أرى النيل لا تحلو موارده ... لغير مرتهب لله مرتقب

فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت ... جاءت جفونى لها باللؤلؤ الرطب

كأنى عند ذكرى ما ألم بها ... قرم تردد بين الموت والهرب

لذلك فإنه كثيرا ما يتضمن شعر حافظ السياسى شعرا اجتماعيا لما كان من تداخل السياسة بالمجتمع، إذ كثيرا ما تكون المشكلة السياسية متفرعة من مشكلة اجتماعية وبالعكس. لذلك فإننا نجد فى شعر حافظ السياسى شعرا اجتماعيا، وفى اجتماعياته شعرا سياسيا.

وباستعراض شعر حافظ السياسى نقف على ألوان مختلفة من القصائد، ولعل أهمها ما يتعرض فيه للاحتلال وموقف الإنجليز من مصر والسودان، فمصر بلد محتل، يسيطر المعتمد البريطانى على كافة أموره، كما سيطرت انجلترا على السودان ومقدراته.

وحافظ كشاعر عاشق لمصر ينطق بلسانها وعواطفها، ويتجاوب مع أحاسيسها، تتدفق هذه الأحاسيس الوطنية فى قلبه فينتج عنها شعرا.

لقد عشق حافظ مصر عشقا ملك عليه عاطفته ووجدانه حتى أن وطنياته وسياساته ظلت بمثابة الدعامة التى تستند إليها قدراته باعتباره شاعرا مجاهدا ومدافعا عن وطنه.

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى ... فى حب مصر كثيرة العشاق
إنى لأحمل فى هواك صبابة ... يا مصر قد خرجت عن الأطواق
لهفى عليك متى أراك طليقة ... يحمى كريم حماك شعب راق

ولقد ساقه هذا الحب إلى أن يجعل من نفسه شاعر أمته الوطنى والمؤثر البالغ الأثر فى إلهاب شعورها وإذكاء حماسها. وأحد عوامل تكوين الحركة الوطنية المصرية حيث اندمج باحساسها وأخرج شعره المعبر عن هذه المعانى كلها فيتغزل بمصر ويتغنى بها فيقول:

وما أنا والغرام وشاب رأسى ... وغال شبابى الخطب الجسام
لعمرك ما أرقت لغير مصر ... وما لى دونها أمل يرام
ذكرت جلالها أيام كانت ... تصول بها الفراعنة العظام
وأيام الرجال بها رجال ... وأيام الزمان لها غلام
فأقلق مضجعى ما بات فيها ... وباتت مصر فيه فهل ألام؟

ولم يشأ حافظ أن يكون شعره فى وطنه طبلا أجوف، وإنما اتخذ ما يحدث من أحداث فى وطنه أساسا لدعوته فيختار منه موضوعا لشعره.

لقد بدأ حافظ هجومه على الإنجليز منذ بدايات حياته الأولى أثناء عمله ضابطا فى السودان بعد أن عرف سوء نيتهم ، وأعرب عن اليأس فى جلائهم عن وادى النيل فقال:

أرى مصر والسودان والهند واحدا

بها (اللورد) و (الفيكنت) يستبقان

وأكبر ظنى أن يوم جلائهم

ويوم نشور الخلق مقترنان

وهذه القصيدة تعبر بوضوح عن فهم حافظ لمشكلة الاحتلال فى مصر.

لقد ذهب حافظ إلى السودان أثناء حملة كتشنر ثم طرد من الجيش، بعد اشتراكه فى مؤامرة ضد الإنجليز فجاء به الإنجليز إلى مصر وطلبوا محاكمته وإنزال العقاب به، وصدر ضده حكم الإعدام ثم خفف الحكم بعزله ثم أحيل إلى الاستيداع.

وخلال ذلك كانت فى نفسه شكوى دائمة من الاحتلال وكان شعره سجلا للأحداث، يسجلها بدماء قلبه وأجزاء من روحه ويصوغ فيها أدبا يستحث به النفوس ويدفع إلى النهضة ، وهذه القصيدة تعبر عن شكوى مصر والمصريين من الاحتلال:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان اصبح المصرى حرا منعما

أعد عهد (اسماعيل) جلدا وسخرة فإن رأيت المن أنكى وألما

عملتـم علـى عـز الجمـاد وذلنا فأغليتـم طينا وأرخصـتم دمـا
إذا أخصـبت أرض وأجـدب أهلها فلا أطلعـت نبتا ولا جادها السما
نهش إلى الدينـار حتـى إذا مشى به ربـه للسـوق ألفـاه درهمـا
فلا تحسبوا فى وفرة المال – لم تفد متاعا ولم تعصم من الفقر – مغنما
فإن كثير المال– والخفـض وارف قليـل إذا حـل الغـلاء وخيمـا

وإلى جانب ذلك نجده يشبع شعبه لوما وتقريعا جارحا وينفث فى لومه وتقريعه ثورته المكبوتة ضد الإنجليز، فيقول:

أمة قد فت فى ساعدها
بغضها الأهل وحب الغربا

وفى قصيدة أخرى يقول:

وكم ذا بمصر من المضحكات كمـا قـال فيهـا أبـو الطيـب
أمـور تمـر وعيـش يمـر ونحـن مـن اللهـو فى ملعـب
وشعب يفـر من الصـالحات فـرار السـليم مـن الأجـرب

ثم هو ينتهز كل فرصة ليودعها شعره الوطنى فهو يشبه الليل وطولـه بعهد الاحتلال، البغيض فيقول:

وليل كمطل القوم كابدت طوله وأيقنت أنى لا محالة صاحبه

وتتجمع الثورة على ظلم الإنجليز فى نفس حافظ فيـسير فـى ركـاب مصطفى كامل ويتقدم بقصائده إلى صحيفة اللواء فتنشرها وسط الإعجاب والحماس وحافظ بذلك ينتهز الأحداث ويتخذ منها مادة لهجومه ودفاعـه .

وتقع حادثة "دنشواى" فيشن الغارة على الإنجليز فيلهب الشعور ، ويـذكى الحماس ويستثير الدموع:

أيهـا القائمـون بالأمـر فينـا ... هل نسيتـم ولاءنـا والـوداد
خفضـوا جيشكـم وناموا هنيئا ... وابتغوا صيـدكم وجوبوا البلادا
وإذا اعـوزتكـم ذات طـوق ... بين تـلك الربـا فصيدوا العبادا
إنمـا نحـن والحمـام سـواء ... لم تغـادر أطواقنـا الأجيـادا
لا تظنـوا بنـا العقـوق ولكن ... أرشدونـا إذا ضللنـا الرشـادا
لا تقيـدوا مـن أمـة بقتيـل ... صادت الشمس نفسه حين صادا

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ فيقول:

جاء جهالنا بأمر وجئتم ... ضعـف ضعفيه قسوة واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أقصاصـا أردتـم أم كيـادا ؟
احسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أنفوسـا أصبتـم أم جمـادا؟
ليت شعرى أتلك (محكمة التفتيش) ... عادت أم عهـد نيـرون عادا؟
كيف يحلو من القوى التشفى ... من ضعيـف ألقى إليـه القيادا

ويتجلى فى هذه القصيدة عنف السخرية المرة والألم المكبوت فيهـاجم المدعى العمومى والإنجليز، وقال مخاطبا المدعى العمومى فى القضية:

أيها المدعـى العمومـى مهلا ... بعض هذا فقـد بلغـت المرادا
قد ضمنـا لك القضـاء بمصر ... وضمنـا لنجـلك الإسعـادا
فإذا ما جلسـت للحـكم فاذكر ... عهد (مصر) فقد شفيت الفؤادا

ولما كان بطش الإنجليز ضد كل الأحرار قائما فقد كان يستعمل أسلوب الرمزية فى كتابته فهو يلعن الاستعمار الإنجليزى فى صورة الاستعمار الايطالى لطرابلس ويحمله النكبات التى تحيق بمصر أو بالشرق. وهو فى قصيدة دنشواى لا يهاجم الإنجليز والمدعى العام فحسب بل ينتقد المصريين رغبة منه فى إذكاء نفوسهم ضد الاحتلال فيقرع لأمة تقريعا جراحا مؤلما لاستسلامها للأجانب فيقول:

لاجرى النيل فى نواحيك يا (مصـ ـر) ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا (مصـ ـر) فأضحى عليك شوكا قتادا
أنت أنبت ناعقا قام بالأمـ ـس) فأدمى القلوب والأكبادا
أية يا مدره القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وهذه القصيدة تعد من أروع أشعار حافظ ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التى أظهرت مدى ظلم الإنجليز ومبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال.

لقد فهم حافظ سياسة الانجليز الظالمة، فيعرض لحادثة دنشواى مرة أخرى فيقول:

جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه بين الشفاه وطعمه لا يعذب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميد ويطلب

ثم يلين حافظ فى كلامه متوددا راجيا بقوله:

فاجعل شعارك رحمة ومودة إن القلوب مع المودة تكسب
وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتها ونم عنها تنم فالناس أمثال الحوادث قلب

لقد كان حافظ سريع الاستجابة لأحداث عصره يسجل كل ما يجرى فيه من حوادث جسام، من الاحتلال، فكتب قصيدة يعبر فيها عن الشكوى من الاحتلال البغيض فيقول:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان اصبح المصرى حرا منعما

ويستمر حافظ فى تجسيم الشكوى قائلا :

إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهما

ويختم شكواه بالتندر والسخرية والتهكم على المحتلين فيقول:

فلا تحسبوا فى وفرة المال لم تفد متاعا ولم تعصم من الفقر مغنما
فإن كثير المال والخفض وارف قليل إذا حل الغلاء وخيما

وبعد أن تم عزل المعتمد البريطانى كرومر وخروجه من مصر نرى حافظ يكتب قصيدة يلومه على سياسته وسياسة بلاده متعرضا لما أحدثته سياسة الإنجليز فى دنشواى:

ولولا أسى فى (دنشواى) ولوعة وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا
ورميك شعبا بالتعصب غافلا وتصويرك الشرقى غرا مجردا

لذبنـــا أســـى يوم الوداع لأننـــا نرى فيك ذاك المصلح المتوددا
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ولم تبق للتعليم (يالورد) معهدا
وأنك أخصبـــت البـــلاد تعمدا وأجدبت فى مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغـــات، وإنـــه قضاء علينا أو سبيل إلى الردى
ووافيت والقطران فى ظل راية فما زلت بالســـودان حتى تمردا

حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ولم تستقـــل حتى حجبـــت المؤيـــدا
وأودعت تقريـــر الوداع معغامزا رأينـــا جفـــاء الطبـــع فيها مجسدا
غمزت بهـــا ديـــن النبى ، وإننـــا لنغضب إن أغضبت فى القبر أحمدا
وحاولت إعطاء الغريب مكـــانة تجر علينـــا الويـــل والـــذل سرمدا
ألم يكفنـــا إنا سلبنـــا ضيـــاعنـــا على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنـــا فى العيش كل ممارس خبيـــر وكنـــا جاهـــليـــن ورقـــدا
وما الشركـــات السود فى كل بلدة سوى شـــرك يلـــقى به من تصيدا

ويمضى كرومر ويأتى معتمد جديد هو الدون جورست وينتهز حـــافظ الفرصة ليواجة المعتمد الجديد بالحقيقة والشكوى من المستشار الإنجليزى دنلوب بالمعارف، وأخذ يعدد المطالب الوطنية والاجتماعية ويعبـــر عـــن الشكوى من الاحتلال بقوله

أذيقونـــا الرجـــاء فقـــد ظمئنـــا بعهـــد المصلحيـــن إلى الورود
فمـــا أنـــا واقـــف برســـوم دار أسائلهـــــــا ولا كلـــف بـــرود
ولا مستنـــزل هبـــة بمـــــــدح ولا مستـــنجز حـــــر الوعـــود
ولكنـــى وقفـــت أنـــوح نوحـــا على قومـــى وأهتـــف بالنشيـــد
وأدفـــع عنهـــم بشبـــا يـــــراع يصـــول بكـــــل قافيـــة شرود

وهو إذ يعرض هذه المطالب يغمز السياسة الإنجليزية القديمة ونقائصها ويدعو إلى تمكين المصريين من إدارة شئون بلادهم .

أرى أحداثكم ملكـوا علينـا بمصـر موارد العيش الرغيد
وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعـا وضاق بحملهـم ذرع البريـد
أكل موظف منـك قـدير على التشريـع فى ظل العميـد
فضع حدا لهم وانظـر إلينا إذا انصفنـا نظـر الـودود

وهو فى هذه القصيدة عنيف منطلق تعود به الذاكرة إلى حادثة دنشواى وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية فيتعرض لكرومر ومـا أحدثته حادثة دنشواى من زيادة الوعى القومى لدى المصريين فيقول:

رمانا صاحـب التقرير ظلما بكفـران العـوارف والكنـود
قتيل الشمس أورثنـا حيـاة وأيقظ هاجع القـوم الرقـود
فليت " كرومـر" قد دام فينا يطـوق بالسلاسل كـل جيـد
ويتحف مصـر آنا بعـد آن بمجلـود ومقتـول شهيـد

ثم ينطلق مدويا يتمنى البعث المصرى الجديد بقوله:

لننـزع هـذه الأكفـان عنـا ونبعـث فى العـوالم من جديد

ويختم قصيدته لافتا نظر المعتمد البريطانى جورست إلى أن المصريين قد سئموا سياسة كرومر، وهم يرجون أن يكون عهده خيرا من عهد سلفه:

أجئت تحـوطنا وتـرد عنـا وترفـعنا إلى أوج الصعـود
أم " اللورد " الذى انحى علينا أتى فى ثوب معتمـد جديـد؟

وبعد أن فرض الإنجليز الرقابة على المطبوعات وأغلقوا الصحف وملئت السجون بالأحرار ، لم يخفت صوت حافظ وانطلق ينـدد بهذا الإرهاب فيقول:

إن البلية أن تباع وتشترى "مصر" وما فيها وألا تنطقا
كانت تواسينا على آلامنا صحف إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوت الدمع فاستعصى بكت عنا أسى حتى تغص وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهما نرمى بها وسوابقا يوم اللقا
ما لى أنوح على الصحافة جازعا ماذا ألم بها وماذا أحدقا
قصوا حواشيها وظنوا أنهم أمنوا صواعقها فكانت أصعقا
وأتوا بحاذقهم يكيد لها بما يثنى عزائمها فكانت أحذقا

ثم يتجه بعد ذلك بكل نفسه إلى الشباب المصريين يثير عواطفهم ويهيب بهم ان ينطلقوا فى طريق المجد والحرية مع الحذر واليقظة والتربص للفرص، فهو يدعوهم إلى الاتحاد وإلى العلم وهما سبيل الوصول إلى الحرية وإلى الحياة الكريمة:

أو كلما قالوا تجمع شملهم لعب الشقاق يجمعنا فتفرقا
فتدفقوا حججا وحوطوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدفقا
فتعلموا ، فالعلم مفتاح العلا لم يبق بابا للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكم إن القوى بكل أرض يتقى

ولا يزال حافظ على هذه الشاكلة ماضيا فى طريقه يحمس الشعب ويشغل فيه جذوة الوطنية، وتواكب أشعار حافظ الأحداث التى تمر بها

البلاد ونتيجة لفجيعة مصر بوفاة الزعيم مصطفى كامل فى العاشر من فبراير ١٩٠٨ القى حافظ ابراهيم قصيدته الرائعة فى رثاء الفقيد ، فقال:

زين الشباب وزين طلاب العلا ... هل أنت بالمهج الحزينة دارى
أيا قبر هذا الضيف آمال آمة ... فبكر وهلل والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك (مصطفى) ... شهيد العلا فى زهرة العمر ذاويا
أيا قبر لو انا فقدناه وحده ... لكان التأسى من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كل شئ بفقده ... وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا سائلى أين المروءة والوفا ... وأين الحجا والرأى ؟ ويحك هاهيا
هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح ... فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعور وساقه ... إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا
مدحتك لما كنت حيا فلم اجد ... وإنى أجيد اليوم فيك المراثيا
عليك، وألا ما لذا الحزن شاملا ... وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكيا
يموت المداوى للنفوس ولا يرى ... لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نياما حينما كنت ساهدا ... فأسهدتنا حزنا وأمسيت غافيا
شهيد العلا ، لا زال صوتك بيننا ... يرى كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا: هذا بناء أقمته ... فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يصيح بنا : لا تشعروا الناس أننى ... قضيت وان الحى قد بات خاليا
يناشدنا بالله ألا تفرقوا ... وكونوا رجالا لا تسروا الأعاديا
فروحى من هذه المقام مطلة ... تشارفكم عنى وإن كنت باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإننى ... أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا
أجل، أيها الداعى إلى الخير إننا ... على العهد مادمنا فنم أنت هانيا

بناؤك محفـــوظ، وطيفـــك مـــائل وصوتك مسموع ، وإن كنت نائيـــا
عهدنـــاك لا تبكى وتنكـــر أن يرى أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرخص لنـــا اليوم البكاء وفى غـــد ترانا كما تهـــوى جبـــالا رواسيـــا
فيا نيـــل إن لم تجـــر بعـــد وفـــاته دما أحمـــرا لا كنت يا نيـــل جاريا
ويا (مصر) إن لم تحفظى ذكر عهده إلى الحشر لا زال انحـــلالك باقيـــا
ويا أهل مصر ان جهلتم مصابكـــم ثقوا ان نجم السعد قـــد غار هوايـــا

وعندما أعلن الإنجليز الحماية على مصر سنة ١٩١٤ وقـــاموا بعـــزل الخديوى عباس الثانى يتكلم حافظ عن لسان مصر وبلسانها مطالبا بالحرية فاضحا سياسة الممالطة والوعود فيقول مخاطبا المعتمد البريطانى:

ودع الوعـــــود فـــإنهـــــا فيمـــا مضى كانت رواية
أضحت ربوع النيل سلطنة وقد كانـــت ولايـــــــــة
نـــرجـــو حيـــــاة حـــــرة مضمونـــة فى ظل رايـــة
ونـــــروم تعليمـــا يكـــون له من الفوضـــى وقايـــة
ونـــود ألا تسمعـــوا فينـــا السعايـــة والوشـــأيـــــة

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، ولم يـــستجب الإنجليـــز لمطالـــب المصريين فى الاستقلال يثور المصريون لكرامتهم المهدرة فتقوم ثورة عام ١٩١٩ عقب اعتقال سعد زغلول وصحبه الذى كان بمثابة الشرارة التـــى أشعلت النار فى وجه المحتلين ووحدت صفوف المصريين ضد الإنجليز ، فيهب الشعب رجالا ونساء، فتشارك المرأة المصرية الرجال فى الثـــورة ، وتعلن عن مساهمتها فيها، يقوم حافظ ابراهيم بايصال صوته إلى النـــاس، فيحي مظاهرة السيدات بقصيدة رائعة مجد فيها شجاعتهن وحمـــل حملـــة

لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن كما بارك ثـورة ١٩١٩ ونـدد بهجوم الجنود الإنجليز المسلحين على المظاهرة التى اجتـازت شـوارع القاهرة متجهة صوب بيت الأمة فقال:

خـرج الغوانى يحتججن ورحـت أرقب جمعهنه
فـإذا بهـن تخـذن من سود الثيـاب شعـارهنه
فطلعـن مثـل كواكـب يسطعن فى وسط الدجنة
وأخذن يجتـزن الطريق ودار (سعد) قصدهنـه
يمشين فى كنـف الوقار وقد أبـن شعـورهنـه
وإذا بجيـش مقبـل والخيـل مطلقـة الأعنه
وإذا الجنـود سيوفهـا قد صـوبت لنـحورهنه
وإذا المدافـع والبنـادق والصـوارم والأسنـة
والخيـل والفرسـان قد ضربـت نطاقا حولهنه
والورد والريحـان فـى ذاك النهـار سلاحهنـه
فتطاحن الجيشان ساعـات تشيـب لهـا الأجنـة
فتضعضـع النسـوان والنسـوان ليس لهن منه
ثم انهـزمن مشتتـات الشمـل نحـو قصورهنه

ويتهكم حافظ فى سخرية مرة بالإنجليز، ويـذكرهم بهـزيمتهم أمـام الألمان، ويهنئهم بالانتصار على النساء فيقول:

فليهنـأ الجيـش الفخـور بنصـره وبكسـرهنـه
فكأنمـا الألمـان قـد لبسـوا البراقـع بينهنـه

وأتـــوا (بهنـــد نبـــرج) مختفيـــا بمصـــر يقودهنـــــه
فـــلذاك خافـــوا بأسهـــــن واشفقـــــــوا من كيـــدهنـــه

لقد هزت ثورة ١٩١٩ حافظ ابراهيم وأثارت عواطفه هزا عنيفا حتـــى ملكت عليه كل عواطفه. وتحولت أشعاره إلى قصيدة ثائرة تلعن الإنجليـــز وتعلن كلمة مصر، وتخط سطور العزة المصرية الثـــائرة بحـــروف مـــن دمائها الزكية. فكتب قصيدة رائعة يتحدث بلسان مصر، ويتغنـــى بوطنـــه وأمجاده ومآثره وحضارته القديمة. كما يتحدث على لسان مصر إلى بنيها حيث تطلب إليهم رفع بنيانها على العلم والأخلاق. وأن يتواصـــوا بالجـــد والصبر فقال:

وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق فالعلـــم وحـــده ليـــس يجـــدى
وتواصوا بالصبر، فالصبر إن فارق قـــومـــا فمـــا لـــه مـــن مسـد
خلـــق الصبر وحده نصر القـــوم وأغنـــى عـــن اختـــراع وعـــد
إن فى الغرب أعينـــا راصـــدات كحلتهـــا الأطمـــاع فيكـــم بسهد
فاتقوها بجنـــة من وئـــــــام غير رث العـــرا وسعـــى وكـــد
واصفحوا عن هنات من كان منكم رب هـــاف هفا على غير عمـــد
إننا عند فجـــر ليل طويـــــــل قـــد قطعنـــاه بين سهـــد ووجـــد
غمرتنـــا ســـود الأهاويـــل فيـــه والأمـــانى بين جـــزر ومـــــد
وتجـــلى ضيـــاؤه بعـــــد لأى وهـــو رمـــز لعهـــدى المستـــرد
فاستبينوا قصـــد السبيـــل وجدوا فالمعـــالى مخطـــوبـــة للمجـــد

وتضطر بريطانيا إلى إعلان تصريح ٢٨ فبرايـــر ســـنة ١٩٢٢ مـــن طرف واحد وتصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة عدا التحفظات الأربعة

التى لم يرض عنها سعد وعارضها المصريون من ورائه يقف حافظ حائرا بين النظرات الحزبية والمواقف المتضاربة فيقول:

ما لـــى أرى الأكمـــام لا تفتـــح ... والروض لا يذكـــــو ولا ينفح
والطيـــر لا تهلـــو بتـــنويمـــها ... فى ملكها الواسع أو تصـــــدح
والنيـــل لا ترقـــص أمـــواجهه ... فرحى ولا يجرى بها الأبطـــح
والشمـــس لا تشـــرق وضـــاءة ... تجلو هموم الصـــدر أو تنـــزح
والبـــدر لا يبـــدو عـــلى ثغـــره ... من بسمـــات اليمن ما يشـــرح
والنجـــم لا يـــزهـــر فى أفقـــه ... كأنـــه فى غمـــــرة يسبـــــح
ألـــــم يجنهـــا نبـــــأ جاءنـــــا ... بـــأن مصـــرا حـــرة تمـــرح؟
أصبحـــت لا أدرى على خبـــرة ... أجـــدت الأيـــــام أم تمـــــزح؟
أمـــوقـــف للجـــد نجتـــــازه ... أم ذاك للأهـــى بنـــا مســـرح؟
ألمـــح لاستقـــلالنـــا لمعـــــة ... فى حـــالك الشـــك فأستـــروح
وتطمـــس الظلمـــة آثـــارهـــا ... فأنثنـــى أنكـــــر ما ألمـــــح
قد حـــارت الأفهام فى أمرهم ... إن لمـــحوا بالقصد أو صرحوا
فقائـــل لا تعجلـــوا إنـــــكم ... مكانـــكم بالأمـــس لم تبـــرحوا
وقائـــل أوســـع بهـــا خطـــوة ... وراءهـــا الغايـــة والمطمـــــح
وقائـــل أســـرف فى قـــوله : ... هذا هو استقلالكـــم فافرحـــــوا
إن تسألوا العقل يقل عـــاهدوا ... واستوثقوا فى عهدكـــم تربحـــوا
وأســـســـوا دارا لنـــوابكـــــم ... للرأى فيهـــا والحجـــا أفسحـــوا
ولتذكـــر الأمـــــة ميثـــاقهـــا ... ألا تـــرى عزتهـــا تجـــــرح
وتنتخـــب صفـــوة أبنائهـــــا ... فمنهـــم المخلـــص والمصلـــــح

وليتــق الله أولــو أمرهـــــا أن يسكنوا الأصوات أو يفرحوا
أو تســألوا القلب يقل حاذروا وصابــروا أعداءكــم تفلحــوا
إنى أرى قيــدا فـــلا تسلموا أيديكــم فالقيـــد لا يسجـــح
إن هيــأوه من حــرير لكــم فهــو على لـيــن بـــه أفـــدح
حتــام- والصبــر لــه غايــة لغيرنـــا من بئرنـــا نمتـــح؟
حتــام – والأمــوال مشفوهــة نمنــح إلا (مصر) ما نمنــح؟
حتــام يمضــى أمرنــا غيرنــا وذاك بالأحـــرار لا يملـــح؟
أساء بعض النــاس فى بعضهــم ظنــا وقــد أمسوا وقد أصبحوا
فانتهــزت أعداؤنـــا نهــزة فينــا وما كانــت لهــم تسنــح
فالرأى كــل الرأى ان تجمعــوا فإنمـــا إجمـــاعكــم أرجــح
وكل من يطــمع فى صــدعكــم فــإنــه فى صخــرة ينــطــح
أخشــى إذا استكــثــرتم بينــكم من قــادة الآراء أن تفــضحوا
فلتقصــدوا ما اسطــعتــم فيــهم فــإنمــا فى القــلة المنــجــح

فحافظ هنا يصف موقف المصريين من هذا التصريح عنــد صــدوره. واستطاع أن يقف موقف المحايد من الأحزاب، فهو لم يقف جهارا مع سعد زغلول، ولكنه أخذ يعرض الآراء منسوبة إلى أصحابها حتى لا يوصــف بالانحياز لطرف دون آخر، ومع ذلك ففى قصيدته التى رثــى بهــا عبــد الخالق ثروت نجده يبين رأيه فى تصريح ٢٨ فبراير ويشيد بدور ثــروت وحصوله على التصريح ويلتمس له العذر فى عدم تمكنه مــن الحــصول على الاستقلال الكامل فقول:

وأتى بأقصى ما ينال مفاوض يسعى بغير كتائب وحــراب

واستل من أشداق آساد الشرى علما عضضن عليه بالأنياب
إن فاته بعض الأمانى فاذكروا أنا أمام محنكيـــن صـــلاب
رجل يفاوض وحده عن أمـــة إن لم يفز فوزا فليـــس بعاب

وبعد تصريح ٢٨ فبراير الذى تضمن إنهاء الحمايـــة البريطانيـــة والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة محدودة يشعر حافظ ابـــراهيم بالتفاؤل والغبطة، ويستقبل هذا العهد الجديد بقصيدة يقول فيها:

أشرق فدتك مشـــارق الإصبـــاح وأمط لثامك عن نهار ضاحى
بوركت يا يوم الخلاص، ولا ونت عنـــك السعود بغدوة ورواح
بالله كن يمنا وكـــن بشـــرى لنـــا فى رد مغتـــرب وفك سراح

وحافظ فى سعادته بعيد الاستقلال وفرحه به يرى من واجبه أن يسوق التهنئة إلى مصر :

فاليوم قرى يا كنانة واهـــدئـــى حـــرم الكنانـــة لـــم يكن بمباح
من ذا يغير على الأسود بغـــابها أو من يعود بمسبـــح التمســـاح

ويعرب حافظ عن أمله فى استقلال السودان فيشيد بوحدة وادى النيـــل فيقول:

للنيل مجد فى الزمـــان مؤثـــل من عهد (آمون) وعهد (فتاح)
فسل العصور به وســـل آثـــاره فى (مصر) كم شهدت من السياح

وبعد ذلك ينادى بوحدة مصر والسودان فيقول:

يا صاحب القطرين غير مدافع ما مثل ساحك فى العلا من ساح
لك مصر والسودان والنهر الذى يختال بين ربا وبين بطاح

ثم يعبر عن إيمانه بالحكم النيابى واعلان الدستور الذى كان أملا يداعب الأمة وأصبح حقيقة بعد أن تألفت لجنة الدستور وتلاحقت المؤامرات والتدابير للعبث به وتأخير صدوره فيقول:

البرلمان تهيأت أسبابه لم يبق من سبب سوى المفتاح
هو فى يديك وديعة لرعية تثنى بألسنة عليك فصاح

كما يردد حافظ أهمية مبدأ وحدة وادى النيل مناديا بأن النيل لأهله:

النيل منبعه لنا ومصبه ما إن له عن أرضها تحويل
وثقت بك الثقة التى لم ينفرج للريب فيها والشكوك سبيل

ويحاول حافظ أن يقف على الحياد أمام حزب الوفد برياسة سعد زغلول، وحزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى يكن. حتى يتولى الحكم اسماعيل صدقى ويحكم مصر بالحديد والنار. ويسانده فى استبداده الإنجليز الذين يزعمون أنهم يقفون على الحياد، وهم فى الحقيقة قد جعلوا منه دكتاتورا يتحكم فى رقاب المصريين، فيقوم بالغاء دستور ١٩٢٣، واستبداله بدستور ١٩٣٠ فينظم حافظ قصيدة يندد فيها بالإنجليز وحيادهم:

قد مر عام يا سعاد وعام وابن الكنانة فى حماه يضام
قل للمحايد هل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام؟

سفكت مودتنـــا لكم وبدالنـــا أن الحياد على الخصـــام لئام
إن المراجل شرها لا يتقـــى حتى ينفس كربهـــن صمـــام
لم يبق فينا من يمنى نفســـه بـــودادكـــم فـــودادك أحـــلام
أمن السياسة والمروءة أننـــا نشقى بكم فى أرضنا ونضام؟
إنا جمعنا للجهـــاد صفوفنـــا سنموت أو نحيا ونحن كـــرام

ولما ازداد بطش صدقى وحكومته بالبلاد هاجم حافظ سياسته وانطلـــق فإذا به مارد جبار، يخرج من قمقمه متوعدا صدقى بسوء المصير وكأنما تجسمت آلام الشعب كلها فى فؤاده ، فتحول شعره إلى أسهم يقـــذف بهـــا صدقى وأعوانه، كما بدأ يستحث النفوس لعودة دستور ١٩٢٣ مبلورا فـــى شعره آمال أمته. وبجانب اهتمام حافظ بقضايا وطنه مصر فقد كـــان فـــى كثير من الأحيان يدافع عن الوحدة العربية والوحدة الاسلامية، وعن علاقة الشوام بمصر ويجعل حافظ أساس الدعوة إلى الوحدة أساسا حضاريا ثقافيا متمثلا فى الأمانى والآمال. ولا يقصره على الوحدة الدينيـــة أو الجنـــسية "فالوحدة فى نظره تضم الشرقيين على اختلاف أديانهم ومـــذاهبهم فهـــى (شرقية) بعيدة المدى فيتوجه إلى مطران الشام قائلا:

"مســـرة " الشـــام ! إنـــا إخوانكـــم مـــا حيينـــا
ثقـــوا فإنـــا وثقنـــا بكـــم وجئنـــا قطينـــا
إنا نـــرى فيـــك "عيسى " يدعـــو إلى الخير فينا
قربـــت بيـــن قلـــوب قد أوشكـــت أن تبينـــا
فأنـــت فخـــر النصـــارى وصاحـــب المسلمينـــا

ونجد هذا التأكيد فى المساواة بين الأديان والتسامح فيما بينها فى قصائده المختلفة كقوله فى قصيدته التى يمدح فيها السلطان عبد الحميد:

يرعى لموسى والمسيح واحمد حق الولاء وحرمة الأديان
فخذوا الموثق والعهود على هدى التوارة والانجيل والفرقان

وقوله فى قصيدة أخرى:

تحالف فى ظل الهلال إمامه وحاخامه بعد الخلاف وراهبه

وإن كان حافظ قد وسع دائرة الوحدة متجاورا عن الأسس الدينية والجنسية، فإنه قد أسرف إسرافا بعيدا فى مدى هذه الوحدة. وذلك حين حاول أن يضم فى هذه الوحدة الشرق الأقصى إلى جانب المشرق العربى. فقد جرى فى شعره ذكر الصين واليابان فى أكثر من قصيدة. وقد تمنى فى مواضع مختلفة من شعره أن ينتظم الشرق الأقصى فى وحدة وثيقة مع الشرق العربى ومن ذلك قوله:

متى أرى الشرق أدناه وأبعده عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
تجرى المودة فى أعراقه طلقا كجرية الماء فى أثناء أفغان
لا فرق بين بوذى يعيش به ومسلم ويهودى ونصرانى

وعندما قامت الحرب بين روسيا واليابان عام ١٩٠٦ نجد حافظ يقف بجانب اليابان، لأنها دولة شرقية ناهضة، ولأنها تحارب روسيا العدو التقليدى لتركيا. ولقد أثارت هذه الحرب عواطف حافظ الشعرية فنظم قصيدته المشهورة التى مطلعها:

لا تلم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبى

وفيها يمدح إمبراطور اليابان موضحا وطنية الشعب اليابـــانى وفهمـــه الناضج للوطنية وعزمه على محاربة أعداء بلاده فيقول:

هكذا " الميكاد" قد علمنا أن نـــرى الأوطـــان أمـــا وأبـــا

وهو إذ يعجب كيف تمكنت اليابان الدولة الشرقية الـــصاعدة مـــن أن تصبح فى مصاف الدول الغربية المتحضرة يرد هذا إلى همة الامبراطور اليابانى فيقول:

مـــلك يـــكفيك مـــنه أنـــه أنهـــض الشـــرق فهـــز المغربا

ويستشعر فى انتصار اليابان على روسيا عزة الشرقيين السليبة التـــى أعادها لهم أصحاب الجنس الأصفر من اليابانيين:

تسوءنا الحرب وإن أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا

أتى على الشـــرقى حـــين إذا ما ذكـــر الأحيـــاء لا يذكـــــر

حـــتى أعاد " الصفر " أيـــامه فانتصـــف الأســـود والأسمـــر

وعلى كل حال فإن الشرق العربى شعر بهزة وطنية بانتصار اليابـــان لانتسابها إلى الأمم الشرقية الناهضة، وكان يتخذ من هذا دعامة حضارية يتمنى أن يرى الشرق العربى كله يذخر بأمثلتها ، فهو دائما ينعـــى عليـــه تأخره ويهيب به أن يسترد مجده وعظمته.

ونستطيع أن نقول إن دعوة حافظ إلى الجامعة الشرقية هى دعوة عملية بناءة أكثر منها دعوة قائمة على بعث المجد الغابر وترديد النغمات الجوفاء بالمجد الخالد.

ونراه يتمنى ان يلحق الشرق بالغرب فيقول:

وسوف تقضـــى عليهـــم طبـــائـــــع العـــمران
فيصبـــح الشـــرق غربـــا ويستـــــوى الحافقـــان

وهو لا يزال يرسم للشرق المنهج القويم للنهوض كما كان يفعـــل مـــع أبناء وطنه مصر فى صراحة وجرأة. دون أن يكون متعـــصبا لـــشرقيته تعصبا أعمى، ولكنه تعصب واع، وهذا نتيجة إيمانه بالتطور الاجتمـــاعى وما تقضى به طبائع العمران.

فالدعوة الشرقية عند حافظ كان أساسها العمل الجدى فى سبيل الرقـــى حتى يصل الشرق إلى مدنية الغرب فى العلم والاختراع، وحول ذلك يقول:

تمشى الشعوب لقصدها قدما وشعـــب النيـــل آخـــر
كم فى الكنانة من فتى ندب وكم فى الشـــأم قـــادر
هذا يطير مع الخيـــال وذاك يرتجـــــل النـــوادر
جهلوا الحياة وما الحياة لغيـــر كـــداح معـــامـــــــر
يجتاب أجواز القفـــــار ويمتطـــى متـــن الزواجـــــر

ويهمنا أن نلحظ أمرا هاما، وهو أن حافظا لم تبعث به وبعاطفته القومية هذه الوحدة الشرقية المتسعة ولا تلك الوحدة العربية الضيقة، إذ أنه لا زال

يشيد بمصر وهذا طبيعى لأنه جعل مصر معقد الأمانى القومية العربية وأنها ذات المكانة الممتازة فى قلوب العرب. فكم صرح أنها زعيمة الشرق وكم عبر على لسانها بهذه الزعامة فى قصيدة بعنوان (مصر فوق الجميع) أنشدتها كوكب الشرق ام كلثوم:

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق ودراته فرائد عقدى
أنا إن قدر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ما رمانى رام وراح سليما من قديم عناية الله جندى

فرغم مصرية حافظ الواضحة فإنه لم يقتصر على مصريته المحدودة، وإنما كان يرى الإخاء القائم بين الشعوب العربية بوجدانه ويعتنقه بإيمانه.

وعبر عن هذا الشعور فى مواضع عدة لعل من أقواها ما جاء فى قصيدته التى حيا فيها الشام فى حفل تكريمه:

لى موطن فى ربوع النيل أعظمه ولى هنافى حما كم موطن ثانى
إنى رأيت على أهرامها حللا من الجلال أراها فوق "لبنان"

ولا يجد فى أدباء العروبة من البلدان المختلفة إلا أخوة للمصريين فى ربوع النيل:

كم فى نواحى ربوع النيل من طرف (للبازجى) و(صروف) و (زيدان)
وكم لأحيائهم فى الصحف من أثر له (المقطم) و (الأهرام) ركنان

obeikan.com

وحافظ يعد بهذه القصيدة إماما لدعاة القومية العربية بمفهومها الحديث، ثم هو يرى فى تفرق الوطن العربى وتمزقه قضاء تاما على ما نتمناه من وحدة تجمع شملنا فيحذر عاقبة الشقاق:

إن دام ما نحن فيه من مدابرة ... وفتنة بين أجناس وأديان
رأيت رأى (المعرى) حين أرهقه ... ماحل بالناس من بغى وعدوان
لا تطهر الأرض من رجس ومن درن ... حتى يعاودها (نوح) بطوفان

فحافظ قد خرج عن نطاق قومية مصرية ضيقة إلى رحاب قومية عربية فسيحة تضم أبناء شعب واحد، بل بين أفراد أسرة واحدة، فقد صور حافظ هذا المعنى فى قصيدته التى أنشدها فى حفل اقيم لتكريم بعض السوريين فى فندق شبرد سنة ١٩٠٨ وافتتحها بهذا المطلع البارع الصادق:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ... هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما ... قلب الهلال عليها خافق يجب

وهو يؤكد أن الوطن العربى جسد واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى:

إذا ألمت بوادى النيل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعانى ثرى الأهرام ذو ألم ... أجابه فى ذرا لبنان منتحب

كما يقول فى قصيدة أخرى:

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إلا الشأم عاج على ... ربوعها من بنيها سادة نجب

ولما أحس حافظ برغبة بعض المغرضين إلى هجر اللغة العربية الفصحى واستبدال العامية بها . وتزعم هذه الدعوة للعامية رجال أمثال شبلى شميل ووليم ويلكوكس وغيره من بعض النفعيين الذين عاونوهم وكادت دعوتهم تنجح لولا جهاد حماة اللغة وعلى رأسهم حافظ ابراهيم الذى كان شديد التعلق باللغة الفصحى ومن أكبر أنصارها، فدافع عن العربية الفصحى بروح لا يتخللها الملل، وكان له اليد الطولى فى إيقاظ الرأى العام ، وكانت أفكاره امتدادا لما نادى به الأفغانى وعبد الله النديم بالاهتمام باللغة العربية فبين محاسن اللغة العربية وأظهر مزاياها ودعا إلى انهاضها بقوله:

أيطر بكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدى فى ربيع حياتى

ويستمر حافظ فى هذه القصيدة مشيرا إلى ثراء اللغة العربية رغم ما يرميها أبناؤها به من القصور عن استيعاب الحضارة ومظاهرها وأدواتها. ويمضى فى تقريع أهلها ولوم أبنائها الذين زهدوا فيها والقصيدة كلها تدل دلالة قوية على اعتبار حافظ للغة العربية انها أداة الوحدة العربية الفعالة وعروتها الوثقى لأن انقطاع الصلة بيننا وبين هذه اللغة اشبه بتجريد المصريين من الذاكرة.

هذا هو حافظ الشاعر صاحب النزعات الوطنية والقومية والمنصف للحقائق التاريخية والذى كان فى شعره أمثلة متعددة للدفاع عن مصر والشرق بأجمعه، كما كان معينا لا ينضب من الكفاح الوطنى، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه مما جعل قصائده أشبه بالأغانى والتغاريد.